الشرف الأنصاري

شعره ومذهبه الفني

نستطيع أن نتبين في شعره أغراضاً رئيسية ثلاثة هي : مدح وأحداث ، ونسيب وغزل ، ومطارحات وألغاز . ويقتضي منا هذا دراستها لنبين من خلالها مذهب الشاعر الفني ومكانته بصفة كونه كبيراً لشعراء عصره في مذهب التورية والانسجام .

مدح وأحداث

في ديوان الشاعر قصائد نبوية متعددة ، مدح بها الرسول الكريم ﷺ ، وجرى فيها على سنة من سبقه من الشعراء . أشار قطب الدين اليونيني إلى نبوية غير موجودة في الديوان ، وذكر أنها أول مدحة قالها فيه ، وأنشدها في حجرته النبوية الشريفة سنة ٦١٩ هـ ، وأورد ما قدمه الشاعر في طرتها ، وهو قوله : « مدحه العبد الضعيف عن حسن تدبيره ، القوي في سوء تقصيره ، المستوحش من انفراده بذنبه ، المستأنس إلى شفاعة نبيه المشفوعة برحمة ربه ، عبد العزيز بن محمد الأنصاري ، جعل الله عليه جائزته ، مواصلة صالح العمل ، ومقاطعة كاتب الأمل ، والغني عن الضراعة بالقناعة ، والتوفيق لتلقي أوامره بالسمع والطاعة ، وأجلها استقامته على الصراط المستقيم ، وإقامته في جنان النعيم المقيم وإدخاله برحمته في عباده الصالحين ، اللهم آمين »[1] .

---

(١) اليونيني : ذيل مرآة الزمان (مخطوط) و ١٢٤ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

انتقد الشاعر في النبوية المذكورة صرف الشعراء مدحهم إلى الملوك طمعاً بالإثابة والعطاء ، وطلب منهم أن يوجهوه في غير هذا السبيل المادي :

يا ناظم الدر الثمين ومهدي الن ظم الرصين لفاضل ومفضل
جانب مخادعة الملوك عن اللهى فالمال يذهب والخصاصة تنجلي(١)

كانت هذه النظرة المثالية في نفس الشاعر يوم كان في ريق صباه وريعان شبابه ، لكنه لم يصرف مديحه عن مخادعة الملوك كما ينصح غيره ، فلقد مدح بعضهم . وخص بشعره منهم من رآه أهلاً له ، لا طمعاً في جاهه ، ولا سعياً وراء زخارف الدنيا ، وهو الذي كانت الملوك تراسله وتخطب وده . نذكر منهم الملك الناصر الذي كان يكاتبه ، ويضمن كتابه شعراً يمدحه به ، ويخطه بيده فقط دون سائر الرسالة ، وقد حدث أن احتجب الناصر مرة لأمر يهمه ، فعاتبه بقوله :

يا ملكاً تخضع الملوك له إنْ غابَ عن دارها وإنْ حضرا
قد حسدتْ عيني الفؤادَ على قربك حتى أطالتِ السهرا
ولست أرضى لعدل مجدك أنْ يعطي نضاراً ويمنعَ النظرا(١)

توجد في الديوان مدح ناصرية كثيرة ، نذكر منها هذه المدحة التي تفنن الشاعر فيها ، فذكر نعوت المدح المعروفة من جود وحلم وبأس :

بك افتخر الأملاك من آل أيوب وعندك نالوا في العلى كل مطلوب
كفيتهمُ الأحداثَ طفلاً ويافعاً تبيد عدواً أو تجود بموهوب
فكم ملْك جبار سلبتَه بجحفلٍ يوسّع بالإقدام ضنك الأساليب
ودهياء في يوم عصيب أدرتها على رأس ملْك فيه بالتاج معصوب

(١) اليونيني : ذيل مرآة الزمان (مخطوط) ، و ١٢٤ .
(٢) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الأنصاري ، ل ٣٧ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

برزت لنا يا يوسف بن محمـــد فخلنا ابن أيوب بدا وابن يعقوب
جهاد إلى أهل المحارب محسن وحُسنٌ به تُسبى الدُّمى في المحاريب
تجول الأماني والمنايا فتنتهـــي إلى أمره في كل بشر وتقطيب
وما عرفت تلك الأعاجم ذلة لغيرك مذ حلت بلاد الأعاريب
جلالة ملك في جمـــال نبوة لأزهر مرجو العواطف موهوب
لك الله من ملك كريم مؤيد من الله محبو المهابة مرهوب
نظمت الدراري فيك لا الدر مدحة لأنك بحر زاخر بالأعاجيب
وأرسلت مكتوبي إليك مسلماً وبالرغم مني أن بعثت بمكتوبي(١)

قصر شرف الدين جل مدحه على الملوك الأيوبيين الذين عاصرهم ، فهم في نظره أعلى ملوك الأرض مقداراً ، وقد أشار إلى هذا المعنى في مدح الملك الأمجد :

أعلى مـــلوك بني أيوب منزلة وهم أجلُّ ملوك الأرض مقدارا
شهم الجنان إذا احمرَّ القنا دلفوا يدعون منه على الأعداء سوّارا(٢)

كان الشاعر في معظم الأحيان ينظم في المناسبات الخاصة كالتهنئة بدخول السنة الهجرية ، أو بحلول شهر رجب ، أو رمضان ، أو أحد العيدين ، أو بالعافية والشفاء من مرض ، أو بمولود ، أو بالعودة من غزاة(٣) .

وكان أثيراً لدى الملوك الأيوبيين الذين مدحهم ، حتى إنه كان ينشد الملك المظفر بعض مدحه وهما راكبان في الموكب الملكي(٤) .

(١) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الأنصاري ، ل ٧ .
(٢) المصدر السابق ل ، ٣١ .
(٣) المصدر السابق ، ل ٢١ ، ٤ ، ١٥ ، ٣٦ ، ١١ ، ٢٤ ، ٢٣ .
(٤) المصدر السابق ، ل ٣٠ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ونراه في مدحه يصف حياتهم في حربهم وسلمهم ، نذكر من ذلك القصيـــدة التي مدح بها الملك المنصور ، ووصف ما يعانيه في الصيد رياضةً ولهواً :

أكملت كل المناقبْ يا خير ماش وراكبْ
تسابق الوحش حتى تخاله كالجنائبْ
وكم ضربت عليها من حلقة بالمناقبْ
جلبت فيها صنوف الـ أضداد يا خير جالبْ
ومن وعول تباري غزلانها والأرانبْ
يا من نخاف وترجى منه السطا والرغائبْ
لك الصفات اللواتي لم يحصها عدّ حاسبْ
كملت مذ كنت طفلاً وزدت بعد التجاربْ
حتى قهرتَ الأعادي بشأمنا غير هائبْ
وارتحت للصيد لهواً إذ لم تجد من تحاربْ (١)

كما كان الشاعر يضمن مدحه وصف الأحداث الكبرى ، فينوه بذكر انتصارات المسلمين على التتار في الوقائع الهامة التي حدثت في هذا العصر . نذكر من ذلك مثلاً قصيدته التي مدح بها الملك المنصور ، وقد أشار فيها إلى معركة عين جالوت المشهورة ، وجاء فيها قوله :

لك العلا أعيت المبارينا تفزع منها الأبكار والعونا
يا ملكاً لم تزل عزائمه تكف عنا الأذى وتكفينا
أنت المليك المنصور أشرف من فاق البرايا عزاً وتمكينا
بعين جالوتَ خضت بحر وغىً يخال فلكاً بالأسد مشحونا

(١) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الأنصاري ، ل ١٠ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وكنت للجيش غرة شدختْ أنوفهم فاثنوا مهابينا
أخذت ثأر الإمام إذ فتكوا به وصالوا عليه عادينا
أذكرتهمْ ما صنعتَ قبلهمُ بكتبغا فاثنوا مولّينا
وما نجا منهمُ سوى خبر أسكن قازان خبره الصينا
يا ناصرَ الدين يا محمدُ ما أولى بحمدٍ من ينصر الدينا
تهنّ ما شئت من مدائحنا كما لنا من نداك ماشينا (١)

نخلص مما تقدم معنا من مدحه لنقول إنها كانت تمثل الحياة السياسية في هذا العصر ، وكان كما يظهر يؤيد سياسة ملوكه ، ويقرهم على ما يراه أنه الحق ، ففي إحدى مدحه المظفرية ذكر نصرته للملك الصالح (٢) ، وفي مدحة أمجدية هنأ الملك الأمجد بقدومه عندما عاد الملك المعظم وشفي (٣) ، يضاف إلى ذلك أن مدحه تضمنت كما رأينا وصف الأحداث الكبرى وبخاصة منها الحروب المريرة ضد التتار ، ولا نعرف بين شعراء العصر من عبر عنها مثله . كما لاحظنا في بعض مدحه أنه كان يعرض عن ذكر النسيب (٤) ، وفي بعضها الآخر كان يطيل نفسه فيها .

نسيب وغزل

أعجب الأقدمون بالرقة المتناهية في شعره ، وبخاصة منه مطالع النسيب وقصائد الغزل ومقطعاته الغنائية ، فهو ينهج من معانيه بشكل عام نهج غيره ، بيد أنه لا يقتصر على اقتباس المعاني الشائعة منها ، وإنما كان يبتكر ويجدد

(١) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الأنصاري ، ل ٨٢ .
(٢) المصدر السابق ، ل ٦ .
(٣) المصدر السابق ، ل ٤ .
(٤) المصدر السابق ، ل ٤ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

في بعضها الآخر وبخاصة منها ما يتعلق بتصنع التورية مذهب العصر في الشام ومصر على السواء .

تحدث عن خيال وجنة الحبيب ، وعقارب الأصداغ وليل الشعر ... كما وصف ذلة العاشق وبكاءه ، وصدود الحبيب وإعراضه ، وتجني الرقيب المحب ، ولوم العاذل والكاشح والرقيب .

لاحظ ابن حجة هذه الطريقة التي تفرّد بها في شعر الغزل والنسيب ، فأعجب به لسلوكه هذه الطريقة الغرامية التي اعتبرها جرياً على سنة البلاغيين في التنويع مظهراً جديداً مبتكراً في البديع ، وقد أشار اليها في معرض حديثه عن الانسجام ، فعرفه تعريفاً واحداً بقوله : « المراد من الانسجام أن يأتي نظمه من العقادة كانسجام الماء في انحداره ، ويكاد لسهولة تركيبه وعذوبة ألفاظه أن يسيل رقةً ، ولعمري إن طيور القلوب ما برحت على أفنان هذا النوع واقفة ، وبمحاسنه الغضة بين الأوراق ساجعة . وأهل الطريق الغرامية هم بدور مطالعه وسكان مرابعه : فإنهم ما أثقلوا كاهل سهولته بنوع من أنواع البديع ، اللهم إلا أن يأتي في ضمن السهولة من غير قصد . وغالب شعر الشيخ شرف الدين عبد العزيز الأنصاري ماش على هذا التقرير (١) » .

اعتنق الشاعر في طريقته الغرامية غزلها ونسيبها مذهب الانسجام في معظم شعره ، وتجلت عبقريته في هيكل القصيدة العام ، وفي أبياتها التي تكاد تذوب رقة ، وتنطق بخفة الوزن وحلاوة الجرس الموسيقي ، فقد كان يحاول دوماً أو يختار لها البحر المجزوء والقافية الراقصة التي لا تنسجم مع ما عرف به من سمت ووقار في حياته الرسمية . يظهر أنه كان يشعر بذنبه في استرساله متغزلاً ، لكن شيطان شعره يطغى عليه ويندم حين لا ينفع

(١) ابن حجة : الخزانة ، ص ١٩٠ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الندم ؛ وحين يجد أمامه قصيدة جميلة ، يعز عليه أن يقذف بها في زوايا الإهمال ، ويعزيه الشفاعة وخلاصه في يوم بعثه ، كما في القصيدة الغزلية التي نظمها على وزن قصيدة للقاضي الفاضل :

لعيني كل يوم منه عَبْرَهْ ... تصيرني لأهل العشق عِبْرَهْ
فمسجد جفنها لا نقص فيه ... وكم جهزت منه جيش عُسرهْ
إذا غفل الوشاة أسلت دمعي ... فيغدو مرسلاً في وقت فترهْ
علامة شقوتي في الحب أني ... ثقلت عليك لا عن طول عشرهْ
فوتر الوصل لم يشفع بشانٍ ... وهجرك مرة في إثر مرهْ
وجفنك أكحل من غير كحل ... وخدك أحمر من غير حمرهْ
وصبري فيك ليس له وجود ... ووجدي منك لا أحصيه كثرهْ
سألزم باب خمار الثنـــايا ... ليطلق لي ولو في العمر سكرهْ
وقدماً كنت مستوراً إلى أن ... لبست من الخلاعة ثوب شهرهْ
أطعت غوايتي وعصيت رشد الـ ... ـمناصح كرة من بعد كرهْ
وما تنقى من الأدناس نفسي ... ولو غُسلتْ بصابون المعرهْ
وأعجب حادثات الدهر أني ... أحاول طاعة فتعود حسرهْ
وأطمع في خلاصي يوم بعثي ... وما أخلصت في مثقال ذرّهْ (١)

جمعت هذه القصيدة الغزلية بين سحر المعاني وجمال الأسلوب : فأما في المعاني فقد رأيناه يتحدث عن العبرات والوصال والهجران وصور محاسن الحبيب وخلص إلى التحدث عن ضلاله في هواه ، ولزومه باب خمار ثناياه ، ورجائه في الخلاص يوم النشور . وأما في أسلوبه فقد أخذ من البديع محاسنه ، وجمع فيه من التورية والانسجام أوفر نصيب ، وطبع كل ذلك بطابعه الخاص ، ورمز في أسلوب التورية إلى جيش العسرة ، والمرسل في غير فترة ، وباب خمار الثنايا ، وصابون المعرة . . .

(١) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الأنصاري . ل ٣٧ ، ٣٨ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وما دام قد أضله شيطان هواه ، وطرق باب الخمار ، فلنستمع إليه يحدثنا عن جارته ربة الخالين التي حوت حسن البداوة وجمال الحضارة وذلك في مطلع نسيب مدحة مظفرية أنشده إياها وهما راكبان في الموكب الملكي :

لنا من ربة الخالين جاره ... تواصل تارة وتصد تاره
تؤانسني وتنفر من قريب ... وتنفر ثم تقبل في الحراره
وتعنفني بما يحلي سلوّي ... ولكن ليس في جوفي مراره
وما لي في الغرام بها شبيه ... وليس لها نظير في النضاره
وفي الوصفين من كحل وكُحْل ... حوت حسن البداوة والحضاره
وقتل العمد قد قتلته علماً ... وما وصلت إلى باب الإجاره
وقالوا : قد خسرت الروح فيها ... فقلت : الربحُ في تلك الخساره
بأيسر نظرة أسرت فؤادي ... كما نشأ اللبيب من الشراره
أطارت شمل حسن الصبر عني ... بأحسن شملة من فوق طاره
شمرتُ إزارها عنها فصدّت ... فقلت : تقدمي ودعي الشماره
أدرت على مؤزّرها عناقي ... فبت ومعصمي للبدر داره
إذا استسقى بريقتها نديم ... أزالت خمرها عنه خماره (١)

نرى في المدحة المذكورة هذا المطلع الغزلي الرقيق ، فهو يحاول أن ينسج خيوط قصته مع جارته الحسناء ، وقل أن يجاريه فيها شعراء الغزل المشهورون ، إذ نلاحظ أنه ينحو فيه منحى مادياً محضاً بأسلوبه الرشيق الشيق ، بما فيه من انسجام بديعي وتورية جميلة .

تلك هي قصة جارته المتخيلة في معرض النسيب ، بيد أن للشاعر قصة حقيقية عن جارية مما ملكت أيمانه ، وقد خلدها في شعره من خلال قصيدتين ، وكانت النهاية فاجعة أليمة في حياة الشاعر ، لم يفطن أحد لها

(١) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الأنصاري ، ل ٣٠ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ممن عاصره ، لكننا قرأنا قصتها في تضاعيف شعره : أما القصيدة الأولى فقد روى لنا فيها قصة الجارية الحسناء التي عشقها ، وجاء فيها قوله :

سروري بساقية جاريهْ ووجدي بجارية ساقيهْ
أهز بهاتيك عطف القريض ليثني على هذه الثانيهْ
سبتنيَ كاسية بالجمال فروحي عندي لها عاريهْ
على الجسم حاكمة بالضنا وفي القلب آمرة ناهيهْ
تراني إذا لم أزر بيتها كأنيَ بيت بلا قافيهْ
تواصلني فأحوز المنى وأجلس في الدست والحاشيهْ
وتنأى فأجلس في مسجدي وحيداً وألتف بالباريهْ
ولما شكوت إليها الجوى وعته لها أذن واعيهْ
فقالت : بعيني هذا السقام فقلت : على عينك الواقيهْ
أضاحكة السن لو زرتني عجبت لمقلتي الباكيهْ
وإني ، وإن نال مني الأذى معافى إذا كنت في عافيهْ (١)

نبضات جديدة من الغزل الرقيق سكب الشاعر فيه قلبه وروحه ، فابتعد عن التقليد الذي عرفناه في غزل هذا العصر ، ونلاحظ أن الشاعر كان يعاني تجربة حب حقيقية لجاريته مارية (٢) التي كان يحبها كثيراً . أما نهاية هذه القصة فقد اختتمت بغرقها في نهر العاصي ، فرثاها بقوله :

وجارية مذْ تعلقتُها نبذتُ إليها جميع العلقْ
تملكتُها فاعتراني لها غرام تملكني فاسترقْ
وقد كنت أغرق في حبها وما كنت أخشى عليها الغرقْ
وكنتُ أخافُ عليها العيونَ فقد حقق النهر ذاك الغرقْ (٣)

(١) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الأنصاري ، ل ٩٠ .
(٢) عرفنا اسم هذه الجارية من أحد أبيات القصيدة المذكورة ، ولم يرد في الديوان ، وإنما عثرنا عليه في ذيل مرآة الزمان (و ١٢٧) .
(٣) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الأنصاري ، ل ٦٢ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

استخدم الشاعر في أغزاله الأبحر المجزوءة التي تثير في القصيدة جرساً ناعماً ، ويختار لها القوافي المستساغة التي تولد في النفس النشوة والارتياح ، وتهزها هزة الثمل والطرب ، ومن خلال الأوزان والقوافي يسير الشاعر بخطاه الحثيثة نحو الانسجام المنشود في شعره ، ويبلغ ذروة نضجه الفني المشفوع بالذاتية والطبع السليم كما في هذه القصيدة الغنائية ذات الوزن الراقص :

رفقاً بروحي فهي لكْ وعلى السخي بما ملكْ
أفضل بحق من اصطفا ك على الملاح وفضّلكْ
وكأن ربك بالجما ل على اقتراحي مثّلكْ
أخطاك فيه بمنصب سوّاك فيه وعدلكْ
من فر من ذلّ السؤا ل فعزتي أن أسألكْ
إن تحم طرفي أن يرا ك جعلت قلبي منزلكْ
إني أغار إذا الأرا ك دنا إليك فقبّلكْ
ويروعني واشي النسي م إذا ثناك وميّلكْ
ما أقبح الصبر الجمي ل بعاشقيك وأجملكْ (١)

تنبض هذه الغزلية الغنائية بالعاطفة الصادقة والشعور الفياض ، وتتسم بالرقة المتناهية التي عرف بها شعره ، ونلمح فيها مظاهر الانسجام بين اللفظ والمعنى من ناحية ، والوزن والقافية، من ناحية أخرى ، حتى ليشعر الإنسان وهو يتلوها بإيقاع الجرس الشعري العذب ينساب من خلال حروفها وكلماتها وأبياتها . وهي بالتالي تعبر عن نفسية الشاعر الحقيقية التي تنبض من خلالها ، وهي تختلف عن نفسية شرف الدين الوزير الكبير المعروف في كل الأوساط بالسمت والوقار . مهما احتجبت النفس الإنسانية ، فلا بد لها حين تجد أمامها متنفساً أن تتعرى على حقيقتها في حميّا الأهواء وحينئذ لا يحجبها عن العاطفة الحقيقية منصب أو سلطان وزهد أو ورع ، كما في هذه المقطوعة التي يقول فيها :

(١) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الأنصاري ، ل ٦٣ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أبعدته وهو القريبْ وجفوته وهو الحبيبْ
فغدا غريباً وانفرد تُ بشوقه فأنا الغريبْ
يا من به دائي يطـ بّ ومن به عيشي يطيبْ
خذ ما تشاء من السرو ر فليس لي منه نصيبْ (١)

يؤكد ما نذهب إليه أنه كان يحضر مجالس الغناء الملكية ، وقد غُني مرة بين يديه لحن فأعجبه ، فنظم قصيدة على وزنه ، مطلعها قوله :

لا بدّ لي منهمْ وفوا أو لم يفوا أو بخلوا بالوصل أو تعطفوا (٢)

يظهر أن شعره كان ينشد في حلقات المتصوفة ويغنى في مجالس الطرب وكان يكرر في شعره بعض الألفاظ التي يتخذها المغنون تكئة لازمة لهم في أغنياتهم ، نذكر من ذلك قوله في قصيدة ، وقد ضمن البيت المجزوء الأخير لفظة الليل أربع مرات ، يبدأ ليلته الأولى بابتداء غايته الزمانية في (من) الجارة ، ويطيب سمره ولهوه ، فلا تأخذه سنة ولا نوم ، وإنما يصل الليلة بالليلة بـ (إلى) الجارة ، فلا يصحو إلاّ بعد انقضاء رابعة لياليه الأنصارية :

غرامي فيك لا يحصى بميزان ولا كيل
وأما دمع أجفاني فلا تسأل عن السيل
وما أنس فلا أنسى مراحي ساحباً ذيلي
وإجلابي على اللذا ت بالرجل وبالخيل
من الليل إلى الليل إلى الليل إلى الليل (٣)

(١) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الأنصاري ، ل ٧ .
(٢) المصدر السابق ، ل ٥٦ .
(٣) المصدر السابق ، ل ٧٢ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يزداد الشاعر رقة في بعض مقطوعاته الغزلية حتى يصل بها إلى درجة من اللين ، تغدو أقرب ما تكون إلى الأسلوب العامي :

لا وفقت بنت الحميصيه دانيـة الدار ومقصيـه
صوفية المذهب لكنها ناعمة الجسم حريريه (١)

آنس الشاعر في أغزاله هذه الرقة المتناهية التي طبع عليها ، فقـد صرح بها عرضاً في بيتين :

جد لي يا سيدي حلة تحلي بها عاطل أحوالي
أرق من قلبي ومن عبرتي وخد محبوبي وأغزالي (٢)

وجاء في قصيدة أخرى قوله :

أقسمت ما خده الخالي من الخجل أرق من مدمعي الجاري ولا غزلي (٣)

نلاحظ أنه يعترف بهذه الرقة المتناهية ، فهو إذن يتعمدها تصنعاً ، على الرغم من أنها موجودة في شعره طبعاً ، وهذه الصفة هي أهلته ليكون رائد شعراء عصره في مذهب التورية والانسجام ، وسنوضح أهميته في حديثنا عن مذهبه الفني .

مذهبه الفني

استخدم الشاعر في طرائق تعبيره كثيراً من الأساليب البلاغية المستجدة في هذا العصر ، بيد أنه تفرد دون غيره بسلوك مذهب بلاغي معين في تصنعه البديعي ، فأبدع فيه كل الإبداع ، وقد أعجب الأدباء المعاصرون بهذا الاتجاه الجديد الذي يسير جنباً إلى جنب مع الاتجاه التي بدت تباشيره

(١) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الأنصاري ، ل ٩٠ .
(٢) المصدر السابق ، ل ٧٢ .
(٣) المصدر السابق ، ل ٦٦ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

قبيل ذلك في مصر على يد القاضي الفاضل وجماعته من بعده ، فنهجوا نهجه ، واقتدوا به ، وتداولوا معانيه ، ولا نبالغ إن قلنا إن معظم شعراء النصف الثاني من القرن السابع الهجري كانوا من تلامذته ، فاستمدوا منه كثيراً من معانيهم الشعرية .

نوه الصفدي بعبقرية الشرف الأنصاري ، وأعجب بمذهبه الشعري ، وأشار إلى أنه أكبر شاعر عرفته بلاد الشام كما أجمع على ذلك معاصروه ومما قاله : « لا أعرف في شعراء الشام بعد الخمسمائة وقبلها من نظم أحسن من شرف الدين ، ولا أجزل ، ولا أفصح ، ولا أصنع ، ولا أسرى ، ولا أكثر ، وما رأيت له شيئاً إلا وعُلِّقته ، لما فيه من النكت والتورية الفائقة ، والقوافي المتمكنة ، والتركيب العذب ، واللفظ الفصيح ، والمعنى البليغ (١) » .

يلاحظ أن الشاعر أكثر من تصنع التورية في شعره ، وهي لباب مذهبه الفني ، فهو لا يكتفي بإيرادها مرة واحدة ، وإنما يكثر من ذكرها ما وسع إلى ذلك سبيلاً ، فهو رائد المذهب الرمزي في أدبنا العربي خلال هذا العصر في بلاد الشام ، نذكر من ذلك قوله في جاريته مارية :

أوقعني في قيد أسر الهوى جارية أوصافها جامعهْ
ثالثة البدرين في حسنها مع أنها في نسكها رابعهْ (٢)

وكنا أشرنا بالتفصيل إلى ما في شعره من توريات ، ونكتفي منها بهذا القدر ، فهي منتشرة فيه كل الانتشار ، وقد عرف بين الأقدمين بهذه الصفة المميزة . ويلاحظ من طرف آخر أن الشاعر حاول أن يوسع مدى التصنع البديعي في باب التورية ، فلم يقتصر منها على ما عرفه البلاغيون ، وإنما كان

(١) ابن شاكر : فوات الوفيات ، ج ١ ص ٢٨٩ .
(٢) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الأنصاري ، ل ٥١ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

يحاول أن يوري بغير الألفاظ ، وذلك عن طريق عبثة اللفظي بالكلمات والحروف ، والشواهد على ذلك كثيرة ، نذكر منها قوله وقد أنشد الملك المنصور من شعر المتنبي بعضه :

تملّك الحمد حتى ما لمفتخر في الحمد حاء ولا ميم ولا دال

فعقب على ذلك بقوله :

يا أيها الملك المنصور يا ملكاً أوصافه كاملات وهي أصناف
رفقتَ بالخلق حتى ما الذي ورع في الرفق : راء ولا فاء ولا قاف
وفزت بالملك حتى ما الذي شرف في الملك : ميم ولا لام ولا كاف
وكم كتائبَ رُعتَ المارقين بها فيهن من ألفات الخطّ آلاف (١)

انتشرت هذه الصفة كثيراً في شعره ، وغدت مظهراً مميزاً من مظاهر مذهبه الفني ، نذكر من ذلك قوله يعبث بلفظه « شرخ » :

وقد خانني شرخ الشباب وراعني مشيب ، وحالي منه شرخ بلا خاء(٢)

وقوله يعبث باسم ممدوحه « يوسف » الملك الناصر :

يُسمّى فيُزى كل مجد وسؤدد إلى يائه والواو والسين والفاء(٣)

وقوله يعبث بلفظتي الحب والحس :

فلو أصبحت ذا حاء وسين لما عنّفت في حاء وباء(٤)

---

(١) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الأنصاري ، ل ٥٥ .
(٢) المصدر السابق ، ل ٢ .
(٣) المصدر السابق ، ل ٣ .
(٤) المصدر السابق ، ل ٤ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

كما نلاحظ بالإضافة إلى ذلك استخدامه التورية بالاصطلاحات النحوية ، نذكر من ذلك قوله :

ومعرب اللفظ لي من نحوه أبداً حذف وصرف وإعلال وتنكير
ولحظه ساكن والقد منتصب والقرط مرتفع والمرط مجرور (١)

وقوله :

لا تسألوا صبكم عن حبه فله من الإضافة ما يغني عن النسب
وراقبوا منه حالاً غير حائلة كما عهدتم وقلباً غير منقلب (٢)

كثرت المصطلحات النحوية وغيرها كثرة ظاهرة ، فقد استخدم معانيها لا كما وضعت لها ، وإنما استخدمها بحسب مفهومه الخاص كمظهر من مظاهر الرمز والإيحاء ، من ذلك قوله :

مديحٌ تخيرتُ القوافي محلياً به رفعها والنصب والجزم والجرا (٣)

وقوله :

رفعتَ ذوي الإعراب من بعد خفضهم فأثنى عليك الرفعُ والنصبُ والجرُ (٤)

وقوله :

إذا فاعل رام ارتفاعاً بفعله ففعلك مرفوع بأنك فاعلُهْ (٥)

---

(١) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الأنصاري ، ل ٣٣ .
(٢) المصدر السابق ، ل ١٠ .
(٣) المصدر السابق ، ل ٣٠ .
(٤) المصدر السابق ، ل ٣٦ .
(٥) المصدر السابق ، ل ٦٧ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولم يكتف بذلك بل كان يحاول استخدام بعض المصطلحات العروضية أو البديعية منها قوله :

وبحر طويل الباع منسرح الندى بسيط المعالي وافر الفضل كامله (١)

وقوله :

ووشّتْ يدُ الأنواء بُردَ رياضه بغرائب التوشيع والتفويف (٢)

يضاف إلى ما تقدم ذكره وجود الجرس الموسيقي الشعري في قصائده ، وقد رأينا أن الشاعر قد صرح برقة أغزاله ، ومصدر هذه الرقة في نظرنا حسن أختيار الألفاظ الجميلة المعبرة ، والقوافي ذوات الروي الموحي ، والأوزان المجزوءة التي تلائم أغراضه ومعانيه ، ذلك كله مع ما لا حظناه من تصنع بديعي يؤلف الانسجام في مذهبه الفني ، وقد أشار إلى هذه الصفة من خلال قوله :

واسمع بديع نظيم لا يساجله جزل من المدح في سهل من الغزل (٣)

يتضح مما أسلفنا أن الشرف الانصاري كان رائد الشعراء الأول في مذهب التورية والانسجام ، وقد أشار ابن حجة في خزانته إلى الفرقتين اللتين اعتنقتا هذا المذهب في مصر والشام على السواء .

أما الفرقة الأولى فهي « العصابة التي مشت تحت العصائب الفاضلية » (٤) بزعامة القاضي الفاضل ، ومن روادها الأوائل ابن سناء الملك ، وأبو الحسين الجزار ، والسراج الوراق ، والنصير الحمامي ، وشمس الدين بن دانيال ، ومحي الدين بن عبد الظاهر ، وأما الفرقة الثانية الشامية « فإمام جماعتها

---

(١) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الأنصاري ، ل ٦٨ .

(٢) المصدر السابق ، ل ٥٤ .

(٣) المصدر السابق ، ل ٦٧ .

(٤) ابن حجة : الخزانة ، ص ٢٧٦ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الشيخ شرف الدين عبد العزيز الأنصاري شيخ شيوخ حماة »(١) ، وكان من روادها أبرز شعراء النصف الثاني من القرن السابع ، وهم كلهم من تلامذته ، ساروا في الطريق التي سبقهم فيها .

أورد ابن حجة ذكرهم فقال : « وجاء من شعراء الشام جماعة تأخر عصرهم ، وتأزر نصرهم ، ولان في هذا النوع هصرهم وبعد حصرهم فيما أرادوه كما زاد حصرهم ، كل ناظم تود الشعرى لو كانت له شعرا ، ويود الصبح لو كان له طرسا ، والغسق مداداً ، والثرة ثرا ، منهم شرف الدين عبد العزيز الأنصاري والأمير مجير الدين بن تميم ، وبدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبي ، ومحي الدين بن قرناص ، وشمس الدين بن محمد ابن العفيف ، وسيف الدين بن المشد .... »(٢) .

ذكرني قول ابن حجة : « كل ناظم تود الشعرى لو كانت لو شعرا » بقول شرف الدين نفسه في وصف شعره :

زيّنتُ من فكري سماء العلا منك بشعرٍ يخجل الشعرى(٣)

ولا يكتفي الشاعر من وصف فنه الشعري بأنه يخجل الشعرى فحسب ، وإنما يرى أنه يزهد البحر بأبهى جواهره :

ولي قصائدُ في مدحيه باهرةٌ تُزهّد البحرَ في أبهى جواهرِه(٤)

غدت هذه القصائد المدبجة عرائس تجل عن نظرائها إذ إنها توشحت بجواهر التورية :

أجلو عرائسَ مدحِهِ فتجلُّ عن نظرائها إذْ جلَّ عن نظرائِهِ(٥)

---

(١) ابن حجة : الخزانة ، ص ٢٧٦ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٥٤ .
(٣) مصورة مخطوطة ديوان الشرف الأنصاري ، ل ٣٨ .
(٤) المصدر السابق ، ل ٣٩ .
(٥) المصدر السابق ، ل ٣ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

تتضح بعد ذلك أهمية هذا الشاعر في عصره ونخلص مما أسلفنا لنذكر أنه كان ذا طبع سليم ونهج قويم ، وقد اتخذ من الانسجام سبيله ومن التورية وكده فأصبح صاحب مذهب أدبي هـــام ، يشيع السحر اللفظي والجمال المعنوي دون تكلف ذميم أو تعسف عقيم ، واستطاع بعبقريته ومهارته الفنية أن يبعد التعقيد والإغراب عن الشعر العربي في هذا العصر بعد أن طغت عليه أساليب الصنعة والتصنيع والتصنع ، وهذا هو وحده السبب الذي جعله موضع إعجاب القدماء وتقديرهم ، فقدموه على من جاء قبله ، ومن جاء بعده من شعراء هذا العصر (١) البديعيّ ، عصر التورية (٢) ، كما دعاه أستاذنا التنوخيّ .

الدكتور عمر موسى باشا

(١) أحد الأعلام الذين ترجم لهم المؤلف في بحثه الواسع عن (الأدب في سورية في القرنين السادس والسابع الهجريين) ، وقد نال به مؤلفه درجة الدكتوراه في الآداب من جامعة القاهرة بمرتبة الشرف .

(٢) ينظر في البحث الهام الذي تحدث فيه الأستاذ الكبير العلامة عز الدين التنوخي عن عصر التورية وجمالها في هامش (تهذيب الإيضاح) في الصفحات ٩٤ ـ ٩٩ من جزئه الأول .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net